

فرانكنشتاين في بغداد الجسد المجزأ وسرديات الضياع في ديستوبيا سعداوي.

*Frankenstein in Baghdad: Dismembered Bodies and
Narratives of Loss in Saadawi's Dystopian Vision*

بوزغاية وفاء.

- مخبر التأويل وتحليل الخطاب؛ جامعة عبد الرحمان ميرة؛

بجاية (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: wafa.bouzeghaia@univ-bejaia.dz.

تاريخ الإرسال: 2025/05/11؛ تاريخ القبول: 2025/06/09؛ تاريخ النشر: 2025/06/15.

الملخص:

تشهد الرواية العربية المعاصرة اليوم تحولات جذرية على صعيد الشكل والمضمون، نتيجة انفتاح النص على أشكال سردية متنوعة، أتاحت للمبدعين استكشاف ثنائيات جديدة، ومن أشهرها ثنائية (اليوتوبيا والديستوبيا)، تمثل اليوتوبيا عالماً مثالياً يسوده الانسجام والقيم الفاضلة، في حين نجد الديستوبيا على النقيض، عالماً تسوده الفوضى والفساد والشر المطلق، أصبحت هذه الثنائية نمط سردي يتيح التأمل للروائيين في انهيار القيم المجتمعية، وهذا ما ممثلته رواية فرانكنشتاين في بغداد لأحمد سعداوي، التي تحكي واقع العراق أيام الغزو الأمريكي، راصداً لنا بعدسة الروائي تحولات المدينة، من مدينة تحمل الأمل، لمدينة يخيم عليها الموت والعنف والخوف، فانعكس تغير

شكل المدينة على الشخصيات التي تقطنها، فجاءت هذه الرواية لتطرح تساؤلات كثيرة حول تفاعل المكان وتأثيره على الشخصيات.

الكلمات المفتاحية: اليوتوبيا؛ الديستوبيا؛ أدب الحرب؛ المدينة الفاسدة؛ فرانكشتاين في بغداد.

Abstract:

Today, the contemporary Arabic novel is witnessing radical transformations in both form and content, resulting into the openness of the text to diverse narrative styles, which has allowed creators to explore new dualities, the most prominent of which is the (utopia and dystopia) dichotomy. Utopia represents an ideal world governed by harmony and virtuous values, while dystopia, depicts a world dominated by chaos, corruption, and absolute evil. This narrative allows novelists to reflect on the collapse of societal values, such as the novel of Frankenstein in Baghdad by Ahmed Saadawi, which tells the reality of Iraq during the American invasion. Through the novelist's lens, the city's transformation is documented, from a city bearing hope to one overshadowed by death, violence, and fear. The city's transformation shaped its residents. The novel raises profound questions about the interaction of the place and its impact on characters.

Keywords: Utopia; Dystopia; War Literature; The Corrupt City; Frankenstein in Baghdad.

مقدمة:

يمثل الأدب في كل عصر من عصور مرآة عاكسة للمجتمع، بكل تفاصيله ومتغيراته الحياتية والسياسية والاجتماعية والثقافية، حيث هذه التغيرات مثلما كان لها الأثر على المجتمع، كذلك كان لها نفس الأثر البالغ على الأشخاص، وبما أن الروائيين جزء من هذا النسيج المجتمعي ويمثلون وعي الأمة، مثلما كان الشعر ذاكرة العرب

وديوانها في السابق، أصبحت اليوم الرواية سجل هذا العصر والجنس الأدبي الأقرب، والأكثر توغلا في نسيجه المجتمعي، ناقلا حكايته من العالم الواقعي لعالم الرواية التخيلي، حيث يستقي الكاتب مادته الروائية من الأحداث الإنسانية والاجتماعية السائدة، ويتخذ منها الأرضية الممهدة لكتابة روايتهم.

ومن التيمات الروائية التي سادت في المشهد الأدبي العالمي والعربي رواية اليوتوبيا والديستوبيا، التي هي روايات أرجعت البطولة للمكان أو المدينة بصورة أدق، لم يعد مكانا مجالاً سطحياً يمكن تجاوزه، بل قام الكتاب بتضمينيه عمقا دلاليا، حيث أصبح هذا النوع من الرواية يتكلم على المدينة بوجهيها النبيل والمنحرف الفاسد، وعلى الظروف والعوامل المنتجة لهذا الشكل الروائي، من خلال نزولهم إلى قاع المجتمع ليصور مدى فظاعته، ناقلين بشاعة الواقع الذي أصبحنا نعيشه لعوالمهم التخيلية، ويهدم وهم المدينة الفاضلة.

كون أن هذه التيمات الروائية حديثة على الجنس الروائي العربي وهي اتجاهاً يطفئ عليه الجانب الفلسفي نطرح إشكاليتنا: كيف ترجم الكتاب والروائيين المنظور اليوتوبي والديستوبي في رواياتهم؟ وكيف أصبح هذا الشكل تحولا في الكتابة السردية؟ كيف تجلت أفكار الكاتب أحمد سعداوي التي جسدها في روايته (فرانكنشتاين في بغداد) حول منظور الديستوبيا وعلاقته بالواقع العربي؟ كيف انعكس المكان الديستوبي على شخوص الذين يعيشون فيه وحولهم إلى مسوخ؟

ومن أجل الإجابة عن هذه الإشكاليات كانت هذه الورقة البحثية، التي بدأنها بتحديد ماهية الديستوبيا، وكيف اقترن هذا

المصطلح الفلسفي بالرواية، وكيف تجسد في روايات العالمية والعربية، ودرسنا الواقع الديستوبي في الرواية العراقية (فرانكنشتاين في بغداد) للكاتب احمد سعداوي، بتصويره مدينة بغداد أيام الغزو الأمريكي وتحولها لمدينة الموت وأثر هذا على الشخصيات، وتبين البنية اللغوية التي يكتب بها هذا النوع الروائي.

1. الديستوبيا تحولات المفهوم وتجلياته في الأدب المعاصر:

يمثل مصطلح (DYSTOPIA) ذو الأصل يوناني (المكان الخبيث) وجاءت تمثل الوجه الآخر لكلمة (اليوتوبيا)، أما في المجال الأدبي استعمل النقاد مصطلح (الديستوبيا) للإشارة للأعمال الروائية التي تصف شكل المجتمعات التي أفسدتها المظاهر المادية وتلاشت فيها القيم الأخلاقية وعصفت بها النزاعات السياسية والاجتماعية، وعليه "فالديستوبيا مفهوم فلسفي عكس فكرة اليوتوبيا، الديستوبيا تعبر عن المجتمع الفاسد والمخيف، الذي يسوده الانحطاط والفوضى والتهيه، وفقدان قيمة الذات، مجتمع يحكمه الشر المطلق، ومن أبرز ملامحه التآمر، والقتل، والاستبداد، والقمع، والفقر، والمجاعة، وانتشار المرض بفعل الأوبئة، فهو عالم تعاني فيه الإنسانية من اللاإنسانية" (أحلام بن الشيخ، 2018: 65)، ومن خلال هذا التعريف فإن (الديستوبيا) مصطلح غربي وارد على ثقافتنا العربية، ويستعمله الدارسين للإشارة إلى (المدينة الفاسدة) أو المكان الكئيب الذي يسوده الخراب والدمار والعنف والقمع، فالديستوبيا مفهوم فلسفي، أطلقه الدارسين مصطلح يعبر عن المجتمعات التي عاث بها الفساد، وحلت بها كل مظاهر العبث والفوضى، وفقد الإنسان فيها قيمته الذاتية وأدميته، فالأدب الديستوبي هو نقد لقضايا الاجتماعية

والسياسية، فهو أدب يصور لنا المجتمعات البائسة التي وقعت تحت سلطة أنظمة قمعية، تحولت لأماكن يعاني فيها الإنسان نتيجة الظروف الغير إنسانية سواء كانت نتيجة للسيطرة الشمولية أو الهيمنة التكنولوجية أو التدهور البيئي.

مع نشوب الحربين العالميتين الأولى والثانية، وحدوث الكساد العظيم، ونشوب الحرب الكورية، والحرب في فيتنام، وغيرها من أحداث التاريخية في القرن العشرين؛ استخدم مصطلح (ديستوبيا) أول مرة في منتصف القرن الثامن عشر، واستخدمها الفيلسوف الإنجليزي (جون ستيورات) في خطاب أمام البرلمان في عام 1868م (إيمان تاور سارجنت، 2016: 32).

إن الديستوبيا مفهوم فلسفي يقوم على السخرية والتهكم ونقد الواقع من خلال تجسيده في صورة مدينة خيالية تعكس الفساد والخراب واللاإنسانية، التي تمس العالم الحقيقي الذي ينتمى إليه المبدع.

طرق هذا المصطلح المجال الأدبي في القرن العشرين، فأطلق الناقد على هذا النوع من الكتابة باسم أدب (المدينة الفاسدة)، التي يطلق عليها أيضا تسمية (اليوتوبيا المضادة *Anti Utopian*) فهي عالم تخيلي يتحول فيه هذا الحلم إلى كابوس، ويميل كتاب هذه الروايات لتكون أعمالهم نقدا لاذعاً، معلنين رفضهم لسلبية والانصياع وراء الأفكار المثالية، حينما سادت الشكوك وتضاعفت حول جدوى المثالية في حل المشاكل السياسية (آن ماري توماس وكيث بوكر، 2010: 127)، ولهذا وجد الكتاب في تيمة الديستوبيا أسلوباً من النقد اللاذع، يغلب عليه طابع السخرية والتهكم في روايتهم، مصورين لنا

عالمًا مفزعاً، تسيطر عليه الديكتاتورية والكبت، والقمع، هي رواية المدينة التي حل عليها الدمار بفعل الحروب والمعارك، أو التصادمات السياسية والاجتماعية، أو الكوارث الطبيعية.

تعد (الديستوبيا) تيمة أدبية دخلت على الرواية العربية، وبذلك فهي "ليست جديدة في الرواية العربية، إذ نجد بعض ملامحها عند نجيب محفوظ ويوسف إدريس والشرقاوي وغيرهم، بل يمكن أن نجد ملامح لها في كتب التراث، (...)، حيث أن هذا النوع يستدعي الشعور باليأس والإحباط الذي يشعر به المبدع في مواجهة العنف والقمع واللامأل" (أحلام بن الشيخ، 2018: 65)، وتحدث عن الديستوبيا أو كما يسميه النقاد أدب (المدينة الفاسدة) فهو ليس جديد على الرواية العربية، حيث نجد البعض من ملامحه في روايات كبار الكتاب مثل عند يوسف إدريس، في رواية "الحرام" أو "الغيب"، في حين نجد في روايات نجيب محفوظ، الكاتب الذي كانت المدينة تمثل في أعماله البطل الرئيسي، روايات ولدت من رحم الحارة المصرية، و الأمثلة كثيرة كرواية "ثرثرة فوق النيل" أو "أولاد حارتنا" أو "الحرافيش" أو "رحلة ابن فطومة"، كتابات غلبة عليها النظرة التشاؤمية اتجاه المجتمع والسلطة والاستبداد بكل صوره المادية والمعنوية، أبطالاً كانت تبحث عن حلم المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) المفقودة، متمردين عن واقعهم، ليجدوا أنفسهم في النهاية المطاف أمام صدمة استحالة الحلم اليوتوبي، والمدينة الفاضلة ماهي إلا وهم، وهذا هو جوهر الفكر الديستوبي.

قد ينطلق كل من اليوتوبيا والديستوبيا من حدث ثوري واحد؛ لكنهما لا يلبثان أن يجعلنا من هذا الحدث التاريخي ذاته إما خلاصاً أو جحيماً؛ إذ "يرسم فكر اليوتوبيا التاريخ كونه يؤدي إلى الخلاص

أو إلى الفردوس على الأرض، بينما فكر الديستوبيا يرى التاريخ كونه يؤدي إلى عدم الخلاص والجحيم. وأخيراً بينما يحاول فكر اليوتوبيا التحول، أو الحد، من المعاناة التي يحييها الإنسان يفترض فكر الديستوبيا من جانبه أن هذه المعاناة هي فكرة البداية" (كامل شيع، 2012: 31)، فالليوتوبيا تمثل البحث عن الخلاص وتسموا بالقيم والأخلاق حد المثالية، في حين تمثل الديستوبيا الوجه المعاكس لهذا الفكر، إذ قد تدفع مقاومة السلطات أو بصورة أصح الثورة والمقاومة إلى انتكاسات، من خلال قيام السلطة بإحكام دائرة السيطرة، فتتحول المسألة لمجموعة من المآسي المتتالية.

فالديستوبيا هي أدب استشرافي يتنبأ فيه كتابه بحلول الكارثة في ذلك المكان السيئ، فتيمة الديستوبيا أو (أدب المدينة الفاسدة)، ليست وليدة الظروف الراهنة، بل هي نتاج تراكمات كثيرة جعلت من المفكر أو المبدع في المجال الفني لأن يفجر طاقة رفضه وغضبه في كتاباته الإبداعية التي هي نقدا لاذعاً لهذا الواقع، وتعبيراً عن إحساسه بالجدلان التام في عالم تحولت فيه المعاني الآدمية و الإنسانية إلى تغول ووحشية مادية ومعنوية، بل وغوغائية تحول فيها العالم إلى غابة موحشة مقلوبة المفاهيم، ينشئ لنا الأدب الديستوبي عوالم متخيلة تستمد مادتها من الواقع، لتقدم نسخاً تعكس تشوّهه رغم كابوسيتها.

وكانت بداية هذا الجنس الروائي في الرواية العالمية، عن طريق النصوص الثلاثة الجوهريّة التي أسست لأدب اليوتوبيا المضادة الحديث هي رواية "نحن" ليفجيني زامياتين (1924)، "عالم جديد شجاع" لألدوس هكسلي (1932)، عام (1984) لجورج أورويل (1949). فهذه

النصوص الثلاثة تخاطب مباشرة النظامين السياسيين الرئيسيين (الرأسمالي – الاشتراكي) في بدايات القرن العشرين وتنتقدهما (آن ماري توماس وكيث بوكر، 2010: 128).

تسلك الروايات الكلاسيكية ذات الرؤية الديستوبية مواقف نقدية متباينة من الأنظمة السياسية، التي تجسدها رواية (نحن) في نقدها لانحرافات البيروقراطية للنظام الاشتراكي السوفيتي بعد الثورة، في حين تتخذ رواية (عالم جديد شجاع) منحى آخر، محذرتا من كابوس الرأس المالية والاستهلاكية الغربية، أما رواية (1984) التي شككت في كلا النظامين الرأسمالي والاشتراكي، تعد نقلا نوعية في النقد الديستوبي، الذي تنبأ بتشكيل أنظمة قمعية تتلاعب بمصائر شعوبهم، مكرستا كل جهودها للحفاظ على مصالحها وسلطتها، لا للحفاظ على مصالح مواطنيها، فعكست الرواية رؤية أورويل النقدية للواقع السياسي في سنوات الأربعينات من القرن الماضي. أما من النماذج الروائية السردية لهذا النمط الأدبي والناشئ حديثاً في الأدب العربي، والذين كانوا متأثرين بالروايات الديستوبية الغربية، مثل روايات التي سبق لنا ذكرها الذي أسست لهذا النمط الأدبي العربي، ونذكر منها وأشهرها عربياً رواية (يوتوبيا) للكاتب أحمد خالد توفيق المنشورة عام 2008م، ورواية (ممر الفئران) المنشورة عام 2016م، ورواية (عطارد) المنشورة عام 2015م للكاتب محمد ربيع، ورواية (قواعد جارتين) بجزئها المنشورة عام 2018م للجزء الأول، و2019م للجزء الثاني للكاتب عمرو عبد الحميد، وتظهر الديستوبيا العربية الوجه الآخر والخفي للمدينة العربية، التي حلى عليها الخراب والدمار وتملك اليأس من ساكنيها، نتيجة فشل وفساد الأنظمة

السياسية، والانهييار الأخلاقي للمجتمع وفشل المشاريع الثورية بعد الربيع العربي.

2. السمات الأسلوبية وتقنيات التمثيل الأدبي لرواية الديستوبية:

الرواية الديستوبية هي نوع من الأدب الخيالي، قائم على تصوير الواقع السلبي، بدايتاً من تصوير مستقبل شديد القنامة بغرض تسليط الضوء على قضايا متباينة للمجتمع سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو علمية أو فلسفية أو التلوث أو الفقر أو الانهييار المجتمعي، الذي يفقد فيه الفرد حريته وأمنه وفردانيته حتى مشاعره، حيث تتصارع الشخصيات مع ذلك المكان الخيالي، وتتفاعل معه فيكون هذا المكان حاضناً للأحداث الروائية، فالرواية الديستوبية تصور علاقة الإنسان بالمدينة على وجه الخصوص مؤثر ومتأثر.

2.1. الرواية الديستوبية أدب تخيلي استشرافي:

هي كتابات روائية تكون بنات أفكار كاتبها تمخضت من تأملاتهم وقراءتهم للواقع المعاش وتنبؤهم لما سيحدث في المستقبل، مقدمين في أعمالهم التي هي نقداً للواقع تكهنات ورؤية استشرافية إلى ما ستؤول إليه الأوضاع لو بقي الحال على ما هو عليه (أسماء إبراهيم حسين شنقار، 2020: 812)، فكتاب هذه الروايات يتنبؤون في أعمالهم الروائية بمستقبلاً كابوسياً، تسيطر عليه الفوضى والقمع، ويدقون ناقوس الإنذار بحلول الانهييار، طالبين من متلقي قراءة عميقة ذات رؤية لرواياتهم، والتنبه للخطر القادم، ومحاولة إيجاد الحلول قبل حلول الخراب.

2.2. التميز النصري:

من العناصر الديستوبية الواضحة في أي رواية ديستوبية العنصرية والطبقية، وتصنيف الناس إلى فئات، فئة ظالمة تحتكر كل شيء لنفسها وتبني مجتمعها اليوتوبي بالنسبة لها وفق منظورها الخاص، وتهمش فئة أخرى تحرمها من كافة حقوقها، ولو لم يوجد هذا التقسيم لكنا نتحدث حينها عن اليوتوبيا والتكافل والديمقراطية وليس عن الديستوبيا (أسماء إبراهيم حسين شنقار، 2020: 828)، فالانقسام الطبقي هو أحد أهم سمات المجتمع الديستوبي، ووجه من وجوه الفساد في المجتمع، الذي تنتقده الرواية، فالانقسام الطبقي واللامساواة الاجتماعية، يمثل اضطهاد أصحاب السلطة والنفوذ لشعوبهم، والفرد فيها يعاني التهميش، وينقسم المجتمع لعالمين، عالم مثاليًا (يوتوبياً) لفئة مُسيطرة، في حين العالم الثاني يكون جحيماً لفئة المهمشة، وهذا ما عبر عليه أحمد خالد توفيق في روايته (يوتوبيا)، الرواية التي وصل فيها الانقسام في مجتمع لذروته، لعالمين عالم مثالي محاط بالأسوار وفيه كل سبل البذخ والثراء والرفاهية ومحاط بالأسوار يعيش به نخبة المجتمع من رجال السلطة ورجال الأعمال، وعالم موازي يسكنه الفقراء والمعدومين به كل أشكال الفقر والفوضى والاضطهاد، لتكون تكون الرواية مرآة مكبرة للخطر الذي سيدمر مجتمعاتنا لو استمر على هذا الشكل، الذي جعل المجتمع جنة للأغنياء يعيشون فيه أحلامهم، جحيماً للفقراء يصارعون فيه وكوابيسهم.

2.3. تزيف الحقائق وطمس التاريخ:

فالتاريخ مكون أساسي لشخصية الإنسان، بل وتتحدد أهدافه في الحياة بناء على هذا التاريخ وقيمه بالنسبة إليه، فأصبحنا في عالم

تكثر فيه الأحداث التي تروى بطرق مختلفة لكل روايته الخاصة للحدث تاريخي، وهكذا يطمس التاريخ ويزور لأسباب مختلفة (أسماء إبراهيم حسين شنقار، 2020: 829-830)، وتمييع القضايا وينقلب العدو إلى صديق ولا أحد منا يمتلك الحقيقة إنما كلنا نحاول الاقتراب منها ورؤيتها من منظورنا الخاص، وهو منظور قد يتسم بالشمولية أو بالقصور، بالموضوعية أو بالذاتية، قد يصيب وقد يخطئ وخلاصة الأمر لا نملك الحقيقة إنما نملك صورة ذهنية عن هذه الحقيقة، ولاشك أن إخفاء التاريخ يفصل الإنسان عن ماضيه ويشوه حاضره ومستقبله؛ لأنه بناء على الماضي يكون الحاضر والمستقبل.

2.4. العبثية واللامبالاة:

هناك الكثير من الصفات التي تتسم الشعوب بها في المدن الديستوبية منها الفقر وانحلال الأخلاقي والشهوانية والأنانية والكسل والكثير من الصفات وربما يكون المحرك لهذه الصفات جميعها هي اللامبالاة، تجعل من واقع حالة يسود فيها الهرج والمرج، حالة عبثية نقلها الكتاب من الواقع لعالم الرواية، ولذا نجد أن كثير من كتاب الديستوبيا يركزون على هذه الصفة تحديداً اللامبالاة (أسماء إبراهيم حسين شنقار، 2020: 839-840)، فهو سبب الاستسلام التام لكل ما يحدث معهم، وما يحدث حولهم، فقدان الأمل واليأس من كل ما في الحياة والفشل المستمر هو سبب رئيسي لهذا اليأس.

2.5. التجرد من الإنسانية:

ومن أبرز ملامح الأدب الديستوبي هو التجرد من الإنسانية وتتميز الديستوبيات غالباً بفقدان الحس الإنساني، وسيادة الحكومات والديكتاتوريات أو الاستعمار أو سلطة الشرطة، فالمجتمع

الديستوبي يعاني من الاستبداد عمومًا بكل صوره من القتل والقمع فيصبح وفي هذه المدينة الموت من المشاهد المألوفة بالنسبة للناس (فاطمة برجكاني، 2018: 136)، فهذا الواقع الفوضوي عاش فيه الكتاب والروائيون، وولدت من رحم معاناتهم هذا النوع من الكتابة الروائية، لذلك جاءت كتاباتهم معبرة عن واقع غير مرغوب فيه، معبرون فيها عن المدينة المنهارة التي يتمثل فيها كل صور القبح، باحثين من خلال كتاباتهم عن واقع أفضل، واقع يوتوبي، يسمح للمرء بالحياة الكريمة وتحقيق الذات. إننا إذن، عند حديثنا عن الديستوبيا، نقصد مكانًا لا يطمح أحد للعيش فيه، حيث ذوبان المبادئ وانصهار الإنسانية.

3. ملامح الديستوبيا في رواية فرانكنشتاين في بغداد لأحمد سعداوي:

3.1. المرجعيات الفنية والفكرية للكاتب أحمد السعداوي:

بنى الكاتب «أحمد السعداوي» روايته «فرانكنشتاين في بغداد» من منظور خيالي محض يتجاوز فيه الواقع إلى اللاواقع، من خلال تيمة الديستوبيا، صور السعداوي واقع العراق أيام غزو الأمريكي في 2005، التي حولت سنوات الغزو شوارع العراق لساحات قتل وحرب عصابات، وانفلات أمني، من قتل واغتيالات وجثث مرمية في الأزقة؛ ليصبح الموت شبحًا يحوم في فضاء الوطن.

ورغم استلهام «أحمد السعداوي» روايته من تيمة عالمية هي رواية «فرانكنشتاين» للكاتبة «ماري شيلي»، نجد أن «أحمد السعداوي» استعارة من «ماري شيلي» الاسم وفكرة تكوين البطل العجائبي، من جثث موتى ولكن بطل «ماري شيلي» مكون من جثث مسروقة من المقبرة، انتهك العالم «فيكتور فرانكنشتاين» حرمتهم، بينما الجثث المكونة لبطل «أحمد السعداوي» «الشسمه» في روايته مكون من جثث

مرمية على طرقات، مثل أي شيء مهمل لا قيمة له ولا حرمة، وأراد «هادي العتاك» أن يجمعهم ويدفنهم لتكريمهم، فتسكن الروح هذا الجسد ويتحول لآلة للقتل، مع محافظة «أحمد السعداوي» على فكرة الانتقام ولكن لكل بطل دوافعه في انتقام، أخذت الشخصية موقعها في الرواية ضمن فضاء مكاني يصف ديستوبيا الغزو الأمريكي على العراق، وأثر الحرب المدمر في النسيج البشري المجتمعي.

وتتميز رواية «فرانكشتاين في بغداد» باحتفائها بالتاريخ والهوية العراقية المتعددة في مقومها اليهودي والمسيحي والسني والشيوعي، ورغم استلهاهم الرواية من رواية عالمية إلا أن «أحمد السعداوي» لم يأخذ من «ماري شيلي» إلا فكرة صناعة بطله، إلا أن القارئ للرواية يجد أنها جاءت عراقية صميمه كيف لا وهي نابعة من قلب المجتمع العراقي تتكلم بلسان شخصياته التي تعيش على هامش الحياة، فهي نابعة من قاع المجتمع وتتكلم عن هذا الهامش الذي يعاني الفقر والخوف والرعب والموت كل يوم كأنه شبح يطاردهم في الشوارع والأزقة ليحصد الأرواح، فتحولت مدينة بغداد لمدينة يخيم فيها شبح الموت، وأهل «حي البتاوين» المكان المنسي هو وسكانه مكان ميلاد بطل الرواية «الشسمه»، فتتكلم الرواية عن أبطال العزلة والخوف عن الذين يدفعون فواتير ليس لهم ذنب فيها، فكانت رواية «فرانكشتاين في بغداد» هي رؤيا مأساوية و كابوسية لسنوات صعبة من حياة العراقيين، عبر فيها «أحمد السعداوي» على رفضه وتمرده عن هذا الواقع الذي فرض عليهم في ليلة وضحاها، فتحولت الرواية لمرثاة وجودية تعكس واقعا مأساوياً مثقل بالهموم.

3.2. شخصيات الرواية بين الفعل اليوتوبي والدستوبي:

تمثل الشخصية عنصراً تكوينياً مهماً من العناصر، التي تتبني عليها فعل الحكي في الرواية، فعليها يرتهن فعل القص وبدونها يتعطل؛ لأنها تمثل المركز، الذي تدور في فلكه سائر العناصر، التي تسهم مجتمعة في نسج الحكاية من فضاءات الزمان والمكان وأنساق الأحداث وبنية الخطاب ومستويات اللغة والأسلوب، فهي المترجم لهم وتتخذ منهم وسائل لتعبّر الشخصية عن أفعالها ووظائفها، وذلك بحكم ما تقدمه الشخصية من علاقات بالأمكنة، التي يولد باختراقها لها بالأفعال والأحوال والأقوال، وكذلك الأزمنة التي تعيشها في تفاعلها مع تلك الأمكنة، إذ تعد الشخصية نبض النص، وحركته؛ لأنها أكثر المكونات السردية إثارة وأهمية.

وبناء على أهمية عنصر الشخصية في النص الروائي وما تضطلع به من وظائف في نسيجه الحكائي، وبالنظر إلى شخصية البطلة في الرواية، والتي جعلها الكاتب تجمع بين فكرة البطولة الإنسانية من الرغبة في التغيير المجتمعي، فكرة القتل من أجل الانتقام، شخصية جمع فيها السعداوي بين الإنسانية و اللالإنسانية؛ أو الفعل اليوتوبي والدستوبي، «فالشسمه» وهي الشخصية الرئيسية في الرواية التي بني عليها «أحمد السعداوي» أحداث روايته، فهي شخصية خيالية و فنتازيا ذات طابع عجائبي، غير قابلة للتصديق خارج الإطار الداخلي للرواية، التي أراد الكاتب بواسطتها الربط بين العالم الواقعي والتخيلي، حيث أصبحت الشخصيات العجائبية هو اتجاه جديد يستعملها الروائيين مثل ستار لكي يعبروا بها عن كل ما هو ممنوع ومسكوت عنه، واختراقه وكسر كل الطابوهات، «فالشسمه» شخصية تخيلية تعيش أزمة الحرب في العراق، ومن خلالها يصور لنا «السعداوي» واقع العراق،

وكان افتتاح الكاتب الرواية بالمشهد الكارثي، والمتمثل في حدوث انفجار في «حي البتاويين»، الذي أصبح هو أمر شائع في الحياة اليومية في بغداد في أيام الغزو، ليظهر للقراء الصورة أصلية لمدينة تتن بالخوف والموت والانفجار والرعب والذعر.

وحمل «السعداوي» الشخصية البطلة «الشسمه» العديد من الدلالات والتأويلات عن العراق والأحداث الدائرة فيها، فهي تمثل صورة سوداء لكل الانتهاكات التي حصلت في حق هذا البلد العريق والشعب المسكين سواء من حكامه أو أهله أو الاحتلال، ونرى أن هذه الشخصية البطلة بناها «أحمد السعداوي» على أربعة محاور أساسية وهي: «التسمية / الجسد / الروح / الأفعال».

من حيث التسمية، تعددت تسميات الكائن الغامض في الرواية، بتنوع المرجعيات الثقافية والطبقية لمجتمع الرواية المقسم لطبقات، بدءاً من الطبقة الدنيا التي يمثلها «هادي العتاك»، يطلق على الكائن المجهول اسم «الشسمه»، هي تسمية من اللهجة العراقية تعني «الشيء الذي لا اسم له»، التي تحمل في طياتها بعداً رمزياً عميقاً، يجسد كينونة هذا المجهول، ومهمته الانتقامية ليثأّر لضحايا التفجيرات، وتجسد هذه التسمية صورة عن الضمير العراقي المغتال، «الشسمه» لأنه ليس جثة فعلاً الجثة تشير إلى شخص أو كائن محدد وهذا ما لا ينطبق على «الشسمه» (أحمد السعداوي، 2013: 96).

أما الطبقة الرابطة بين عالم القاع وعالم السلطة فهي طبقة المثقفين ويمثلها الصحفي «محمود السوادي»، الذي يسمي هذا المخلوق الذي يجوب شوارع بغداد ويبحث فيهم الرعب باسم «فرانكشتاين» دلالة على مرجعياتهم الثقافية من جهة، وعلى تصوير حالة التغريب الذي

يعيشها هذا المثقف من جهة أخرى، حيث شبه الصحفي «محمود السوادي» هذا الشبح الذي أرعب الشارع العراقي بشخصية روائية عالمية «فرانكشتاين»، وهذه التسمية هي إحالة من الكاتب لشخصية «فرانكشتاين» في رواية «ماري شيلي»، أما السلطة التي تطارده للقبض عليه فتسميه «بالمجرم X» في الحادي والعشرين من شباط عام 2006 أعلنت القيادات الأمنية العليا في بغداد عن إلقاء القبض أخيراً على المجرم الخطير، الذي تسميه بعض التقارير ب (المجرم أكس)» (أحمد السعداوي، 2013: 347).

أما معاونيها الستة لتحقيق مهمته في الانتقام للضحايا الذين يكون جسده منهم من يسميه سوبر مجرم، المواطن الأنموذجي، الخراب العظيم، المخلص، إنّ تشظّي تسميات هذه الشخصية هي إشارات تعمّد الكاتب اظهارها في الرواية، فإن اختلاف رؤية أبطال الرواية لفعل هذه الشخصية، الذي ولده من رحم معاناتهم، والمتأرجح بين الفعل النبيل (اليوتوبي)، والفعل الإجرامي (الديستوبي)، فمنهم من يراه وحش ومسوخ وهو نتاج الخراب الذي حل بالبلاد، وأنه شخصية فاسدة ديستوبيا يجب القضاء عليها: «أداة الخراب العظيم الذي يسبق ظهور المخلص الذي بشرت به كلّ الأديان على الأرض» (أحمد السعداوي، 2013: 161)، ومنهم من يراه المخلص والمنقذ وأنه الوحيد الذي همه أمر الضحايا المرمية في الطرقات، الذي أخذ على عاتقه الانتقام لهم: «كلهم مساكين، أنا الرد والجواب على نداء المساكين. أنا مخلص ومنتظر، سأقتص بعون الله والسماء من كل المجرمين سأنجز العدالة على الأرض أخيراً.» (أحمد السعداوي، 2013، ص: 156).

أما جسد «الشسمه» له دلالات كثيرة عند الكاتب لذلك تكوينه كان من الأحداث الرئيسية في الرواية، وذلك راجع إلى أن الجسد هو الذي تجري عليه عمليات العنف والتسلط والتعذيب وإلغاء الوجود الإنساني، فعلى مرّ العصور كان الجسد ساحة للصراع السلطوي، هذا الجسد هو الذي يتعرض للتعذيب والاغتياي والإقصاء والإخفاء حتى للتقطيع، فالجسد علاقة بالسلطة تمارس عليه هيمنة مباشرة، إنما تستثمره وتقومه أو تتكل به وترغمه وتُكرهه (باسم صالح حميد، 2020: 37)، وينظر الفيلسوف الفرنسي «ميشيل فوكو» إلى الجسد بوصفه «ذلك الحيز الذي تُنزل عليه قوى القمع والتشئة الاجتماعية والضبط والعقاب» (باسم صالح حميد، 2020: 37).

في رواية "فرانكنشتاين في بغداد"، يتشكل جسد «الشسمه» الشخصية الرئيسية، من أشلاء الجثث المتناثرة في طرقات، حيث يجمع "هادي العتاك" أشلاء ضحايا الانفجارات والأعمال الإرهابية من شوارع بغداد، ويلصقها معا في كيان واحد، بغرض إنساني نبيل (يوتوبي) هو تكريم هذه الأشلاء المتناثرة ودفنها، لتتحول هذه الأشلاء لكائن حي غريب، يجوب شوارع بغداد يطلق عليه تسمية «الشسمه»، الذي يحمل في طياته دلالات عميقة.

يجسد «هادي العتاك» في الرواية نموذجاً وجودياً فريداً، يتجاوز كونه خالق مادي لهذا الكائن، ليصبح جسراً عبر فيه «الشسمه» من العالم اللاواقعي إلى العالم الواقعي، من الهامش لمركز الأحداث، جسد تجمعت فيه كل الطوائف المجتمعية في العراق، بين شيوعي وسني مسلم ومسيحي، يمارس فعلاً تأسيسياً يتحدى فيه الانقسامات المجتمعية: «أنا ولأني مكوّن من جذاذات بشرية تعود إلى مكونات

وأعراق وقبائل وأجناس، وخلفيات اجتماعية متباينة أمثل هذه الخلطة المستحيلة التي لم تتحقق سابقاً أنا المواطن العراقي الأول» (أحمد السعداوي، 2013: 161)، حيث أصبح الجسد ليس له حرمة أو قدسية، وأصبح كأي شيء مهمل، حيث هذه الأجزاء تمثل أناس تعيش على الهامش، لا يسمع أحد لآلامها وأنيها، فتجمعت في جسد «الشسمه» طالبت الانتقام من قاتليها «اجتمعت دعوات الضحايا وأهاليهم مرة واحدة ودفعت بزخمها الصاخب تلك العتلات الخفية فتحركت أحشاء العتمة وأنجبتني، أنا الرد على ندائهم برفع الظلم والاقتصاص من الجناة» (أحمد السعداوي، 2013: 157).

وجسد «الشسمه» الممزق دلالة على «العراق» المشوه والتمزق نتيجة لأعمال المتوحشين والمرتزقة والمتصارعين على السلطة وطائفية والحزبية وتعصب فكري والسياسي الذين لا مشروع لديهم إلا أن ينتجون في كل ربوع الوطن ضحايا، في تحول درامي للأحداث يعكس مأساة الواقع العراقي، واجهة «الشسمه» مشكلة وجودية تهدد بقاءه، فكل عضو ينتقم له من قاتله يتحلل تلقائياً، مما أدخله في دوامة لا تنتهي من البحث عن «قطع غيار» بشرية جديدة ترممه.

هذا الانزياح دلالة على حال العراق الذي مع استمرار القتل ضاع الحق ولم يعد هناك فرق بين المجرم والبريء، ولم نعد نستطيع التفريق بينهم أو معرفة الحق مع من أو من ضد من، وأصبح مشهد ضبابي، وهكذا تحول «الشسمه» من رمز للعدالة الانتقامية إلى آلة قتل عمياء، فأصبح الضحية والجلاد، هو القاتل والمقتول في آن واحد، يقتل ليستمر في البقاء، وغير كل قناعاته وتحول من مخلص يثار لضحايا

إلى قاتل يستهويه العنف والدم، وحش لا يمكن كبح جماحه، في تراجيديا تعكس انهيار القيم والأخلاق في زمن الحرب.

ومن خلال الشخصية البطلة، نرى أن الفساد وتشوه ليس في أمكنة فقط بل إن الديستوبيا تبدأ من ذواتنا وتحل على أماكن، وشخصية «الشسمه» في رواية اكبر دليل لهذا، حيث بدأت من فعل الثأر لضحايا واقتصاص لهم، فكانت البداية من فكرة نبيلة أو يوتوبية، ومع استمرار القتل انحرف سلوك الشخصية وتحولت إلى آلة للقتل، «التفت إليه «الشسمه» وقال له : "هذا ليس كل شيء،...، الأسوأ هو السمعة السيئة التي يبثها المغرضون ضدي، إنهم يتهمونني بالإجرام، ولا يفهمون أنني أنا العدالة الوحيدة في هذه البلاد" (أحمد السعداوي، 2013: 148)، فأصبح مسخا، وهو الوصف الحقيقي لهذه الشخصية بشاعة الشكل والفعل، فالموت لا يلد إلا الموت، ولا نصبح نفرق بين القاتل و المقتول والضحية والجلاد.

تشكل التحولات الجذرية في شخصية "الشسمه" نتيجة لتأثير الصراعات السياسية والاجتماعية التي تمارسها الأحداث على بنية النفسية لشخصية، عكس "السعداوي" ببراعة مأساوية الواقع العراقي، من خلال التحولات الدراماتيكية لشخصية البطلة، فتطرح الرواية إشكالية المسؤولية التاريخية عن المأساة العراقية بكل تعقيداتها، فيتساءل الكاتب في هذه الرواية عن المجرم الحقيقي في تلك الأحداث التي مرت بها العراق، هل هي ديكتاتورية النظام السابق، الذي خلقت صراعات راحت تنمو وتكبر، تحت السطح حتى تحولت لانفجرت مدويا بعد سقوط بغداد، وتحول العراق صورتا حقيقية للمدينة الديستوبية، التي عاثت فيها الفساد وتناحر الفرق

السياسية على السلطة، وطائفية الدينية، ووجدت العصابات و تجار الموت والسماصرة ضالتهم في هذا الصراع، وهذه العفونة المتفشية في جسد المجتمع العراقي، فكلما ألهمت نار صراعاتهم كلما خدمة مصالحهم، وزادت ممتلكاتهم وأرصدتهم في البنوك، فالغزو الذي أدخل العراق في حرب ضروس تخلو من أي مطلب إنساني، بالإضافة لسكوت الشعب وسلبيتهم وخوفهم الذي جعلتهم ينتجوا هذا الوحش «لقد حولوني إلى مجرم وسفاح، وشابهوني بهذا الوصف مع الذين أسعى للقصاص منهم أصلاً. وهذا ظلم كبير، بل أن الواجب الأخلاقي والإنساني يدعو إلى نصرتي والوقوف في صفي لإحقاق العدالة في هذا العالم المخرب بالأطماع وجوع السلطة وشهوة القتل المفتوحة دائماً على مزيد من الدماء» (أحمد السعداوي، 2013: 150)، فالكاتب في الرواية لا يستثني أحد من الذنب المقترف في حق العراق، كلهم مشاركون في هذا الدمار شعباً وحكومتاً وقوى استعمارية.

«فالشسمه» في نهاية الرواية لم يُلَقَ القبض عليه وبقي حراً مثل الخيال الذي يجوب شوارع العراق، يمثل الوجه الأسود للحروب التي مثلما تغتال أراضينا فإنها تغتالنا نفسياً قبل اغتيالنا جسدياً، وتخرج أسوء ما فينا، وتغير مصائرنا وتحولنا إلى قتلى وقطاع طرق، وتحولنا من مظلومين إلى ظالمين «فالشسمه» لكي ينتقم لأشلائه زاد الأرض قتلاً ودماراً، فال موت لا يلد إلا الموت، ولا نصبح نفرق بين القاتل والمقتول ولا الضحية والجلاد، فكلنا مذنبون في حق أوطاننا.

بالإضافة لشخصية الرئيسية نجد شخصيات ثانوية لها أدوار

فاعلة في بناء الحدث وتطوّره، ومن بين هذه الشخصيات:

شخصية «هادي العتاك» هو مواطن عراقي من «حي البتاويين» وسَطَ بغداد، بائع خردوات، شخصية من هامش الهامش، وعائش تداعيات الواقع العراقي حيث أعمال العنف والانفجارات وتطايير أشلاء الأجساد أمام عينيه، فيقف مذهولاً ومستغرباً من المناظر الذي يراها، أوكل له «السعداوي» صناعة الحدث الرئيسي في الرواية ألا وهو صناعة هذا المسخ شأنه شأن «فيكتور فرانكشتاين» في رواية «ماري شيلي»، ليتحول في آخر الرواية لوجه من وجوه «الشسمه» الكثيرة، حيث نجد أن نية «هادي العتاك» كانت خيرة وهي تكريمها لهذه الأشلاء المرمية في الطرقات، بجمعها في جسد واحد ودفنها، لكن سرعانا ما تحول هذا الجسد المتشظي إلى شراً كبيراً، ووجد «هادي العتاك» نفسه هو مجرم الحقيقي في صناعة هذا المسخ، الذي تحول لآلة للقتل تحصد الأرواح، «فهادي العتاك» هو كل واحد فينا سكت بخوفه وسليبيته وشارك في هذا الخراب، فجنينا على أنفسنا أكثر ماجنة علينا الحروب والحكومات.

أما شخصية الصحفي «محمود السوادى» تمثل الجسر الواصل بين عالمين في الرواية، السفلي أي المجتمع المهمش، والمتمثل في أهل «حي البتاويين»، والعالم العلوي النخبة المثقفة والسلطة، وهو واحد منهم، جعل المؤلف شخصية «محمود السوادى» من أهم الشخصيات السارد للأحداث حيث انه هو الذي أخرج أسطورة «الشسمه» من مجرد حكايات شعبية إلى خبر صحفي مثير، فكانت مادة صحفية غنية بالإنارة والتشويق تجذب القارئ، «فالشسمه» «لسوادى» ليس سوى سبق صحفي يرفع من مكانته لدى رئيسه، ويخرجه من الهامش إلى المركز دون اكتراثه بمهمة أو غاية «الشسمه» كونها نبيلة أو لا.

تحولت شخصية «محمود السوادي» مثل شخصيات الرواية في فعلها من الفعل اليوتوبي ذو القيم الفاضلة التي كان يتبنى أفكارها طيلة حياته، إلى الفعل الديستوبي بعد الشهرة التي حققها مقاله واتصاله بالسلطة و تكوينه شبكة المعارف مع نخبة المجتمع، فتحول لمسخ مثله مثل باقي أبطال الرواية، فغير «محمود السوادي» كل مبادئه وقناعاته و أيديولوجياته، اقتداءً برئيسه، ودخوله في عباءته «وأصبح ذيل له» أو «مسخ» له «لا تؤثر في مكانة «السعيد» عند «محمود»، انه يجد التبريرات له دائماً، هو معجب به، هذا الرجل «سوبرمان» حقيقي دون قوى خارقة للطبيعة (...)، ولا أحد يعرف هل هو من يخلق الأوهام حول نفسه أم انه يدخل في دائرة الأوهام دون إرادة أو رغبة منه.» أحمد السعداوي، (2013: 198).

رسم «أحمد السعداوي» بشخصية «محمود السوادي» صورة المثقفين العراقيين، الذين زادوا من سوداوية المشهد، فهم لا يقدمون أية رؤية أو بصيص أمل لإخراج الوطن من نفقه المظلم؛ مصوراً دور الإعلام والصحافة السلبي في هذه الحرب، حيث كان لكل منهم حساباته الخاصة، فكانت الغلبة لمصالحهم الشخصية والاغتراف من ملذات المال والجنس والمظاهر، على حساب مصلحة الوطن والشعب العراقي الذي يموت في شوارع كل يوم، الذين أصبحوا مجرد أرقاماً، ومادة إعلامية يملؤون بها برامجهم التلفزيونية وصحفهم، دون اقتراح حلول أو يطرحون مشروعاً لتغيير، هذا الواقع الكالغ الذي يرسمونه يومياً.

3.3. تشوه المكان وتشظي المدينة الديستوبية في رواية

"السعداوي":

منح «أحمد السعداوي» للمكان بعداً وجودياً يتجاوز كونه مجرد إطار جغرافي للأحداث في روايته، وجعله يتصدر واجهة السرد، كونه بذرة تشع منها المادة الحكائية، اشتغل الكاتب على رمزية المكان من حيث التسمية والدلالة وكذلك المزج بين التخيل والواقعية، فكان للمكان مكانة كبيرة في الرواية بداية من العنوان وهو باختياره لمدينة بغداد، مجال الأحداث الروائية، فاجتمع في بغداد كل ماهو مقدس ومدنس بين الأمس واليوم، بغداد منارة العلم والعلماء وأرض الأنبياء في الأمس القريب، أصبحت اليوم مدينة تحل عليها اللعنة والفاجعة وفقدت كل معانيها الإنسانية والوجودية، مدينة تفوح منها رائحة الموت والتعفن والأشلاء متناثرة في كل مكان، فصور السعداوي ديستوبية المكان، فأصبحت بغداد منطقة ساخنة في وطن العربي لكثرة الانفجارات و العمليات الإرهابية وأصبح من يحافظ عن حياته لليوم المقبل كأنه لعب مع القدر لعبة حظ.

أرسى «أحمد السعداوي» تصوراً جديداً للمكان الروائي، بتحويل مدينة «بغداد» سردي تتكشف فيه الأحداث، واستحضاره مكان واقعيًا ليعزز مصداقية النص، فمن خلال هذه الآلية، يخلق الكاتب إيهاماً بواقعية المكان المتخيل، لإقناع المتلقي بأن الحكاية التي يقرأها قد تكون حقيقية، لكن هذا التوظيف الواعي للواقع لا ينفي صفة التخيل، بل يضيف بُعداً جديداً لإدراك المكان، ليصبح المتلقي قادراً على تفكيك الرموز والدلالات التي ينطوي عليها هذا الفضاء السردية، في عملية تحول المدينة من مجرد خلفية جغرافية إلى عنصر فاعل في تشكيل المعنى الروائي» يستمد مصداقية ما قرأه من الواقع الخارجي، (...)، ويوفر نوعاً من الضغط الأسلوبي عليه، بحيث

يتجه في قراءته، نحو مراد الروائي من الرموز والإيحاءات والدلالات» (مرشد أحمد، 2005: 132، 133)، فكان الكاتب مثل المصور الفوتوغرافي ينقل المشاهد كما هي مصوراً سوداوية الحياة في بغداد، وسَط حفلات الموت اليومي والمجاني، التي يجد ضحاياها فيها أنفسهم ضيوفا مدعوين من دون سابق إنذار أو رغبة، إنها رواية الواقع المفجع والمؤلم والمتشطي، «بغداد» هي استعارة لأي عاصمة جنى عليها أهلها وسياسيها وثقفيها وسكت شعبها عن حقهم، فتتحول لمكان استوطنه شبح «الشسمه».

في حين نجده استحضرا بغداد الحقيقية بأحيائها وشوارعها، يحولها إلى فضاء سردي تملئه الغرابة والرعب، حيث يختلط الواقع بالحكاية، فجعل من «حي البتاويين» نموذج لحي شعبي معزول عن العالم ومهمش يمثل قلب بغداد، جعله «أحمد السعداوي» البطل الحقيقي لهذه الرواية، وصورة مصغرة من بغداد بل من العراق والوطن العربي، هذا الحي العريق الذي تحمل حيطان بيوته المتشقة تاريخ عريق وحقب كثيرة وسكان كثر تواترت عليه، يهود ومسيحيين وأخيراً يعيشه مسلمين ومسيحيين في تعايش وتأخي قبل أن يأتي الغزو الأمريكي ويقلب كل هذه الموازين، تحول المكان مسرحاً مفتوحاً للانحدار الأخلاقي، تتنازع به العصابات المسلحة، وتتخذ أوكاراً للفساد والجريمة المنظمة، كما يمثل كذلك ملجأ أخير للمهمشين، أولئك الذين سلبتهم الحروب هوياتهم، فصاروا مجرد أرقام في سجل النزوح، يشتركون مع المجرمين في شيء واحد، العيش على هامش المدينة التي فقدت روحها.

أما المكان الذي كانت له أهمية كبيرة في رواية هو بيت «هادي العتاك» وسماه الكاتب باسم «الخرابة اليهودية»، وهو ليس بيت بشكل المتعارف به بل هو أغلب ما فيه مهدم، وليس هناك سوى غرفة في العمق ذات سقف متصدع رممها «هادي» وحولها إلى مقر له، «أعاد «هادي» بناء السياج الخارجي للبيت من ذات المواد الموجودة، (...)، لم يكثرث لما فعله «العتاك»، وظل المكان بالنسبة له مجرد «الخرابة اليهودية»، كما هو شأنها دائماً» (أحمد السعداوي، 2013: 30-31)، وجعل الكاتب «الخرابة» هي سلة المهملات التي حوت كل شيء مهمل في هذا المجتمع حتى لو كان هذا المهمل هو الإنسان بأشلائه المتناثرة في الطرقات، ففي هذا المكان جمع «هادي العتاك» أجزاء الضحايا وبعثت من جديد، فكانت «الخرابة اليهودية» المكان الرحمي، الذي شهد ولادة هذا البطل، ولد هذا المسخ من رحم معاناة العنف والمأساة. حول «أحمد السعداوي» في رواية «فرانكشتاين في بغداد» المكان من فضاء جغرافياً إلى فضاءاً سردياً وعنصراً فاعلاً في تشكيل الأحداث والرمزية الروائية، لتتحول المدينة من مسرحاً للأحداث لتصبح كياناً حياً ينعكس من خلاله الواقع المأساوي للعراق بعد الغزو الأمريكي عام 2003، بكل ما يحمله من عنف وفوضى وانزياحات أخلاقية.

3.4. لغة التشظي في الرواية الديستوبية في ظل العنف:

تعد اللغة من أهم العناصر الفنية في السرد الروائي، ولغة في الرواية الديستوبية دورين أساسيين: فهي وسيلة للتعبير من جهة، وشخصية فاعلة في السرد من جهة أخرى، وكلا الدورين عدّ اللغة أداة اتصال وإيصال لنقل الأفكار، ولكن يختلف الفاعل في كل حالة،

فالفاعل في الدور الأول هو الكاتب المحرك لهذا العالم الديستوبي، حيث يصوغ عالمه الديستوبي عبر مفرداته وأسلوبه، وأما الدور الثاني فيكون الفاعل هي الشخصيات الروائية التي تستخدم اللغة أداة لتعبير عن مواقفها أو قناعاتها التي تُحرّك الفعل السرد.

بيد أن الرواية الديستوبية شخصياتها من هامش المجتمع، فإن استحضار لغتها اليومية ألفاظٍ سوقيةٍ أو مهلهلة قد يحوّل النص إلى مستقنعاً للألفاظ المتدنية، وفي المقابل، إذا استخدم الكاتب لغة أدبية راقية في تصوير هذه الشخصيات، فإنه يصبح أمام مشكلة اختلال بين الشكل والمضمون، مما يقلل من مصداقية البناء الفني، فاللغة عنصراً مهماً في بناء الدرامي للرواية فهي لسان شخصياتها الروائية، ولهذا يعتمد كتاب هذا النوع الروائي على الأفكار والأحداث والبناء الدرامي، مع الموازنة بين واقعية اللغة وجماليات الفنية للغة الأدبية.

هكذا تصبح اللغة عنصراً محورياً في التشكيل الدرامي للرواية، فهي لسان الشخصيات وأداة الكاتب في آنٍ واحد، مما يفرض على الروائي الديستوبي تبني استراتيجياتٍ سرديةٍ ذكيةٍ تتجاوز الإشكالية اللغوية دون التضحية بقوة التعبير أو عمق الرؤية أو الجانب الفني الأدبي.

عمد «أحمد السعداوي» في روايته على توزيع السرد بين شخصيتين رئيسيتين لإبراز الأحداث، فالشخصية الأولى تمثل الفئة المهمشة في الرواية والواقع، فهي من عامة الشعب ممثلة في شخصية «هادي العتاك»، في حين تمثل الثانية طبقة المثقفين عبر الصحفي «محمود السوادى»، وتجلّى هذا في تباين المعجم اللغوي لكل منهما، فكان المعجم اللغوي «لهادي العتاك» يقترب من لهجة العامية، التي مجز

باللغة الفصيحة محاولة منه ارتقاء بها والتفاعل معها، أما شخصية «محمود السوادى» التزم بلغة فصيحة لغة المثقفين، فحضرت في الرواية الأمثال الشعبية العراقية وكلمات من اللغة الشعبية العراقية خاصتا في تسمية الشخصيات والأماكن، مما عزز هوية النص أنه نتاج بيئة عراقية محضة، مؤكداً على أصالة النص وخصوصيته الثقافية.

يرى قارئ الرواية أن «أحمد السعداوي» مزج بين السرد والحوار، باستخدامه أسلوباً لغوياً جمع فيه بين الخطاب المباشر واللغة الإيحائية المكثفة دلالياً، التي تعبر عن الواقع العراقي بكل توتراته، حيث انتقل الصراع من ساحة الحرب إلى نسيج الرواية.

وفي الأخير يتضح أن اللغة في الرواية الديستوبية تؤدي دورين رئيسيين: الأول في التعبير عن العوالم الديستوبية بكل تجلياتها، والثاني تحولت لشخصية فاعلة في الخطاب السياسي داخل السرد نقالة الواقع من عوالمه الى علم الرواية التخيلي، وهكذا تصبح اللغة أداة فنية وسياسية في وقت واحد، تعبر عن هموم مجتمع الرواية، وتعمق أبعاد النص.

خاتمة:

سعت الروايات بشقيها العربي والغربي إلى تفكيك فكرة المجتمع المثالي، فنقلت الواقع لعالم الرواية بصورته الحقيقية، مؤكدتا على لا وجود لليوتوبيا دون أن تكون الديستوبيا جزءاً منها، وتظل الرؤية المثالية رؤية نسبية فمّا هو مثالي بالنسبة للبعض، يكون نموذجاً غير مثالي للآخر، فمن خلال دراستنا للواقع اليوتوبي والديستوبي في رواية «فرانكشتاين في بغداد» للكاتب «أحمد السعداوي»، يمكن استخلاص النقاط التالية:

◀ أنها رواية ديستوبية بامتياز تقاطع فيها خط الرواية السياسية مع خط الخيال العلمي، بتصويرها لأوضاع الغزو في العراق والحالة الأمنية المتوترة من عنف وقتل وتفجيرات، وذلك من خلال الشخصية البطلة الفرانكشتاينية، التي استلهمها كاتبها من رواية عالمية، فرواية «فرانكشتاين في بغداد» هي رواية المدينة المنكوبة التي حل عليها الخراب ودمرتها الحروب.

◀ اتجهها الكثير من الروائيين إلى توظيف الأدب الديستوبية كأداة لنقد الواقع، وتعد الموضوعات بين السياسية، والاجتماعية، والقيم الأخلاقية في الرواية الديستوبية.

◀ عمق الكاتب توغله في تشريحه الواقع العراقي، فرواية «فرانكشتاين في بغداد» هي رواية المهمشين بامتياز، الذين إما كانوا أشلاء متناثرة على الطرقات، أو شعب مغلوب على أمره مهدد بالموت في كل دقيقة، فرصد الروائي «أحمد السعداوي» الواقع الديستوبي للعراق على مستوى المكان والأشخاص والأحداث، كفوضى المدينة، والمعاناة المعيشية، وانعدام القانون، والكبت الجنسي، وشيوع ثقافة الخرافة والطائفية.

◀ اعتمد «أحمد السعداوي» في روايته على البعد العجائبي لخلق عوالم روائية خيالية مدهشة تمتزج مع مرارة الواقع، فالعجائية ببعده الديستوبي يولد لدى القارئ الدهشة والإثارة والتشويق في آن واحد.

وفي الأخير نجد أن «أحمد السعداوي» قدم رؤيته المركبة للواقع العراقي، امتزجت فيه السياسة بالأسطورة، والخيال بالتحقيقية، اليوتوبيا بالديستوبية، لتخلق لنا عملاً روائياً يستحق الدراسة والتأمل.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - إبراهيم حسين شنقار أسماء. (2020). "الرواية الديسوبية المصرية (مظاهرها ولغتها)". كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمهور، ج:3، ع:05، ص: 755-900.
- 2 - آن ماري توماس، وكيث بوك. (2010). المرجع في روايات الخيال العلمي. (عاطف يوسف محمود، المترجم) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- 3 - برجكاني فاطمة. (2018). "الديستوبيا في الرواية العربية قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية لفوزي ذبيان". إضاءات نقدية في الأدبين العربي والفارسي، مج:29، ع:29، ص: 131-149.
- 4 - تاور سارجنت إيمان. (2016). اليوتوبية، ط: 1. (ضياء وراد، المترجم) دار هنداوي لتعليم والثقافة.
- 5 - السعداوي أحمد. (2013). فرانكشتاين في بغداد. منشورات الجمل.
- 6 - شياع كامل. (2012). اليوتوبيا معياراً نقدياً. (سهيل نجم، المترجم) بغداد: دار المدى للطباعة.
- 7 - بن الشيخ أحلام. (جوان 2018). "مشهديات الديستوبيا في رواية جملية آرابيا لواسيني الأعرج". مجلة العلامة، ع:06، ص: 64-72.
- 8 - صالح حميد باسم. (2020). "الجسد في رواية العنف في العراق (دراسة في نماذج من رواية ما بعد التغيير في العراق)". كلية التربية، ع: 02، ص: 35-58.
- 9 - مرشد أحمد. (2005). البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

